المنابر فى الاسلام

وسبب اتخاذها فى الجوامع

للأستاذ يوسف أحمد

تكلمنا فى المقال الأول المدرج فى العدد السادس من « المعرفة » عن وصف منبر الحرم المدنى ، وعن وصف منبر الحرم المكى ، ثم أتينا على وصف بعض المنابر فى مصر ، وكيف كانوا يخطبون فى الأرياف ، وعن المنابر الخشبية الكبيرة المسدودة التى اتخذت فى زمن الفاطميين والمماليك البحرية الأولى . ونتكلم الآن عن بعض المنابر الرخامية التى صنعت بمصر ، وغيرها من المنابر الحجرية ، وما يتعلق بالمنابر جميعاً من الخطابة والخطباء .

كانت المنابر — كما أسلفنا فى المقال الأول — كلها خشبية ، فكانت تسرق بعض قطعها الفنية البديعة ، أو كان يعتريها التلف إذا ما طال عليها الأمد ، ففكر المصريون أن يتخذوا المنابر من الرخام لمتانته ، ولئلا يستطيع أحد أن يسرق منها شيئاً .

ولعل هذه الفكرة قد تسربت إليهم مما شاهدوه فى منابر الكنائس ، أو ما رأوه فى منابر سوريا وفلسطين ، مما سندرج له مقالا خاصاً .

وأقدم ما عرف من هذا النوع بمصر هو ما يأتى :

١ — منبر مسجد ايدمر الخطيرى الكائن بشارع فؤاد الواقع بقرب كوبرى أبى العلاء : أنشىء سنة ٧٣٧ هجريه (١٣٣٦ — ١٣٣٧م) وقد عثرت لجنة حفظ الآثار العربية على الأجزاء الباقية منه بعد تخرب المسجد وأودعتها فى دار الآثار العربية ؛ وكان المنبر من الرخام ملبساً به قطعاً من رخام ذات ألوان بأشكال هندسية .

٢ — منبر مسجد آق سنقر الكائن بشارع باب الوزير بالقاهرة ؛ أنشىء سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ويعرف بمسجد إبراهيم أغا مستحفظان ، وبالمسجد الأزرق إشارة إلى كثرة مابه من القاشانى الأزرق البديع ، وهو ، أى المنبر ، أحد آيات الفن العربى الخالدة . كما يرى فى الرسم رقم (١)

٣ — منبر مسجد السلطان حسن بشارع محمد على ؛ أنشىء سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) وهو وإن كان أقل زخرفة من سابقه إلا أنه أكبر منه حجماً ، وأعظم شكلا ، وأحسن هندسة ، وأدق صنعاً ؛ ولاسيما وجهة بابه المحلاة بالنقش المعروف بالمقرنص البديع ، وأيضاً ذروته العليا التى يجلس فيها الخطيب ؛ وربما كان صانعهما واحداً ، أو أن الثانى نقل عن الأول كثيراً ، كما يرى فى الرسم رقم (٢)

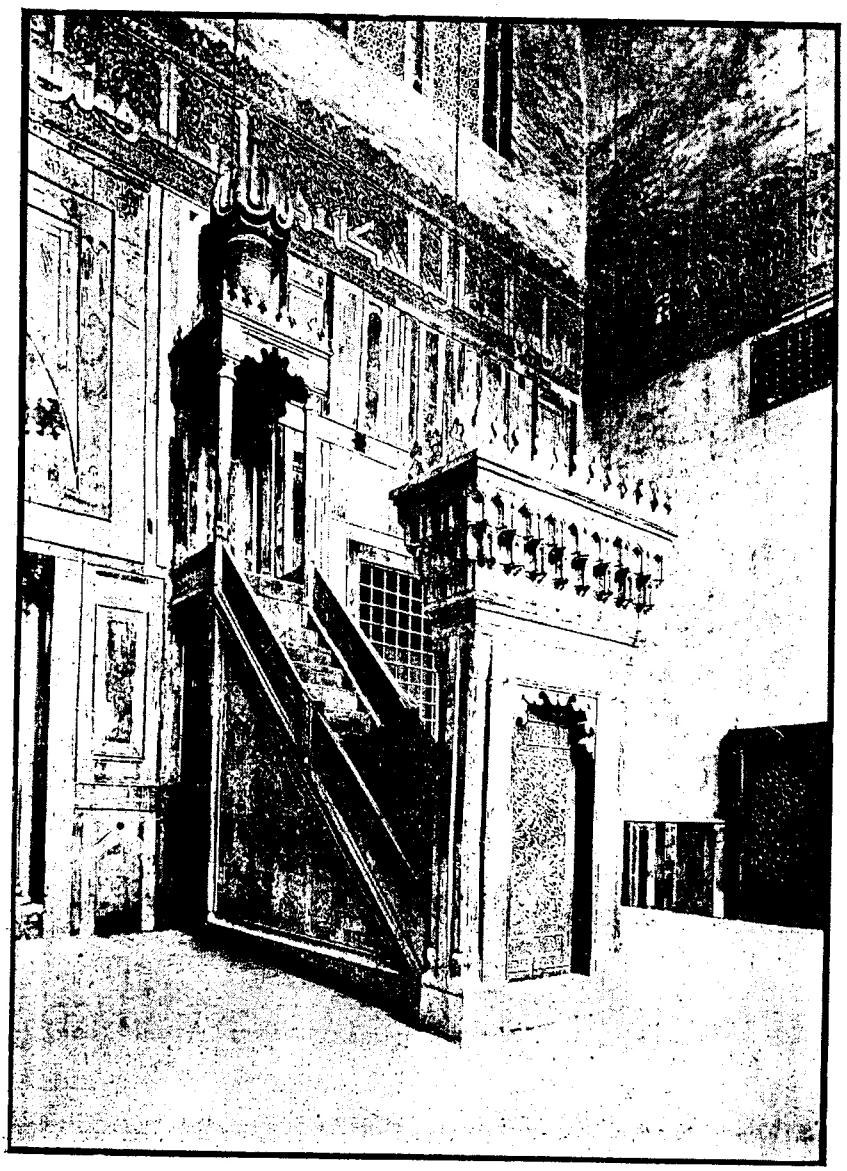

(رسم رقم٢ : منبر مسجد السلطان حسن)

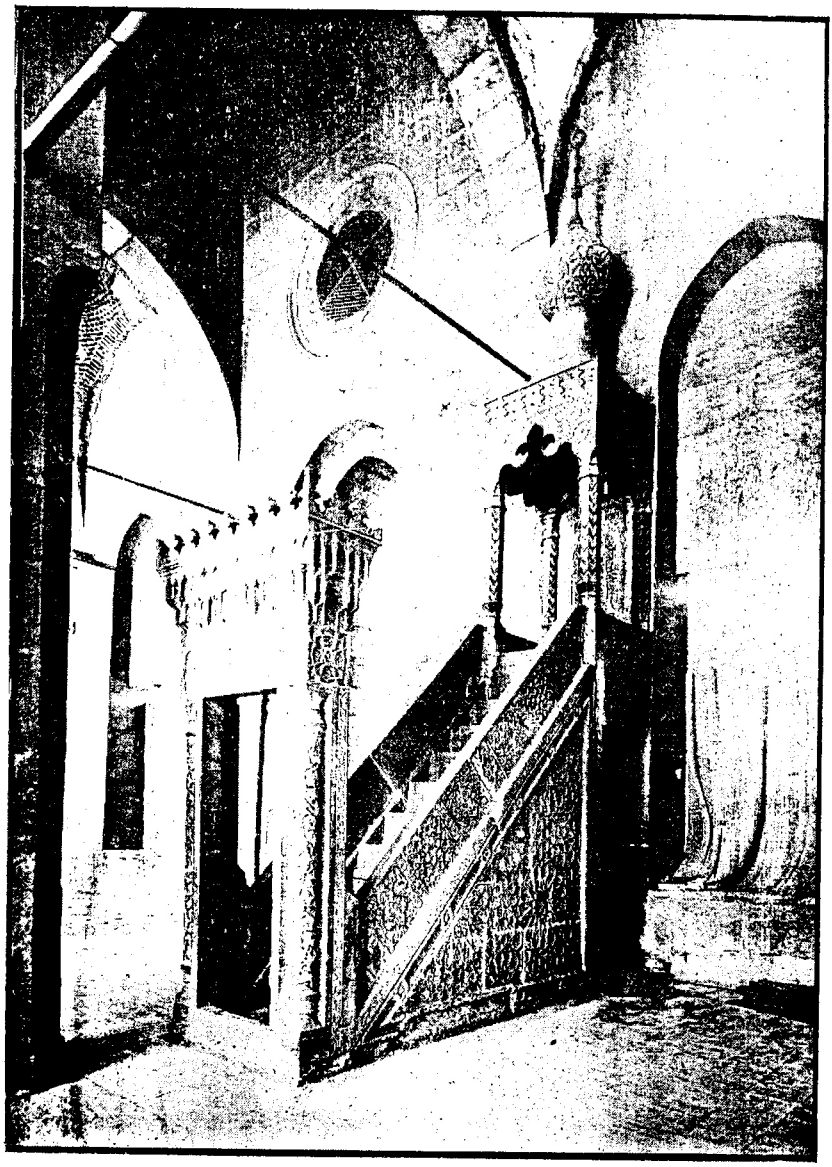

(رسم رقم ٣ : منبر مسجد برقوق بالخراء)

٤ – ولم يقتصر المصريون على صنع المنابر من الرخام الذى كان يستخرج بعضه من مصر، وبعضه يأتى إلى مصر من الخارج؛ ولكنهم عمدوا إلى تصير هذه الصناعة تصيراً كلياً، فاستطاعوا أن يصنعوا المنابر من الحجارة التى تستخرج بكثرة من جبال مصر. فكانت هذه المنابر لاتقل جمالا عن مثيلاتها من الرخام، ولكنها تفضلها بقلة تكاليفها، وقلة الزمن الذى ينفق فى صنعها. فصنع السلطان قايتباى المتوفى سنة ٩٠١ هـ (١٤٦٠ م) منبراً نفيساً لمسجد السلطان برقوق بالصحراء الشرقية من القاهرة، ونقش اسمه عليه فوق بابه المعروف بباب الروضة، كما أنه نقش جانبى المنبر بالنقوش الهندسية البديعة، كما يرى فى الرسم رقم (٣) والرسم رقم (٤)

٥ – ولما تغلب السلطان سليم على مصر وامتلكها فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) أدخل الفن التركى البيزنطى بمصر، وطبع عماراتها بالطابع التركى الخاص، ويعرفه الفنيون والباحثون فى الآثار بمجرد النظر إليها.

ولم يقتصر الفن على تشييد العمارات فحسب، بل تعداه إلى المنابر أيضاً: فأول منبر عمل فى زمن الولاة العثمانيين بمصر هو منبر مسجد سليمان باشا المنشأ سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨–١٥٢٩م) بداخل قلعة الجبل – انظر الرسم رقم (٥) – ويعرف الآن بمسجد سيدى سارية الصحابى الجليل، كما هو الشائع على الألسنة، وكما ورد فى بعض الكتب مثل: رحلة ابن جبير، والمقريزى، وطبقات الشعرانى، وإن كنا لم نر فى كتب التاريخ الأخرى، ولا فى كتب الحديث أن سيدنا سارية الصحابى جاء إلى مصر، فضلا عن أنه مات بها (راجع أسد الغابة فى معرفة الصحابة).

٦ – منبر مسجد الملكة صفية بشارع الداودية؛ أنشىء سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠م) وهو منبر حسن الصنع ذو رونق جذاب تتجلى فيه الصناعة التركية وبخاصة فى الدائرة المخرمة الموجودة بجانبى المنبر، وفى كرانيشه وشكله كما يرى فى الرسم رقم (٦)

ويجب أن يعرف أن المنابر لم تكن توجد إلا فى المساجد الجامعة، ولعله يناسب هنا أن نذكر أن عدد هذه المساجد فى مصر كلها كان فى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ – ٩٤٤م) ١٦ مسجداً كما ذكره ابن عبد ربه فى كتابه «العقد الفريد»؛ وهى: مسجدان بالفسطاط يجمع فيهما العسكر حيث السلطان، والمساجد الباقية: بعين شمس، والفرما، والعريش، وبوصير، وتنيس، وشطا، وديبق، واسكندرية، والقلزم، وايله، والقيس، والصغن، ودلاص، والفيوم.

وواضح من هذا أن القاهرة لم تكن بنيت فى هذا التاريخ لأنها أنشئت سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) كما هو معروف.

ولكن بعد ما بنيت القاهرة، لم تجىء سنة ٣٧٥ هـ حتى أصبح عدد المساجد الجامعة فى القاهرة ومدينة الفسطاط ستة مساجد كما رواه أبو عبد الله محمد بن احمد المقدسى المعروف بالبشارى فى كتابه «أحسن التقاسيم» الذى فرغ من تأليفه سنة ٣٧٥ هـ.

أما ما يتعلق بالمنابر: فمن ذلك ماورواه المقريزى من أن العزيز بالله جعل بجامع عمرو منبراً

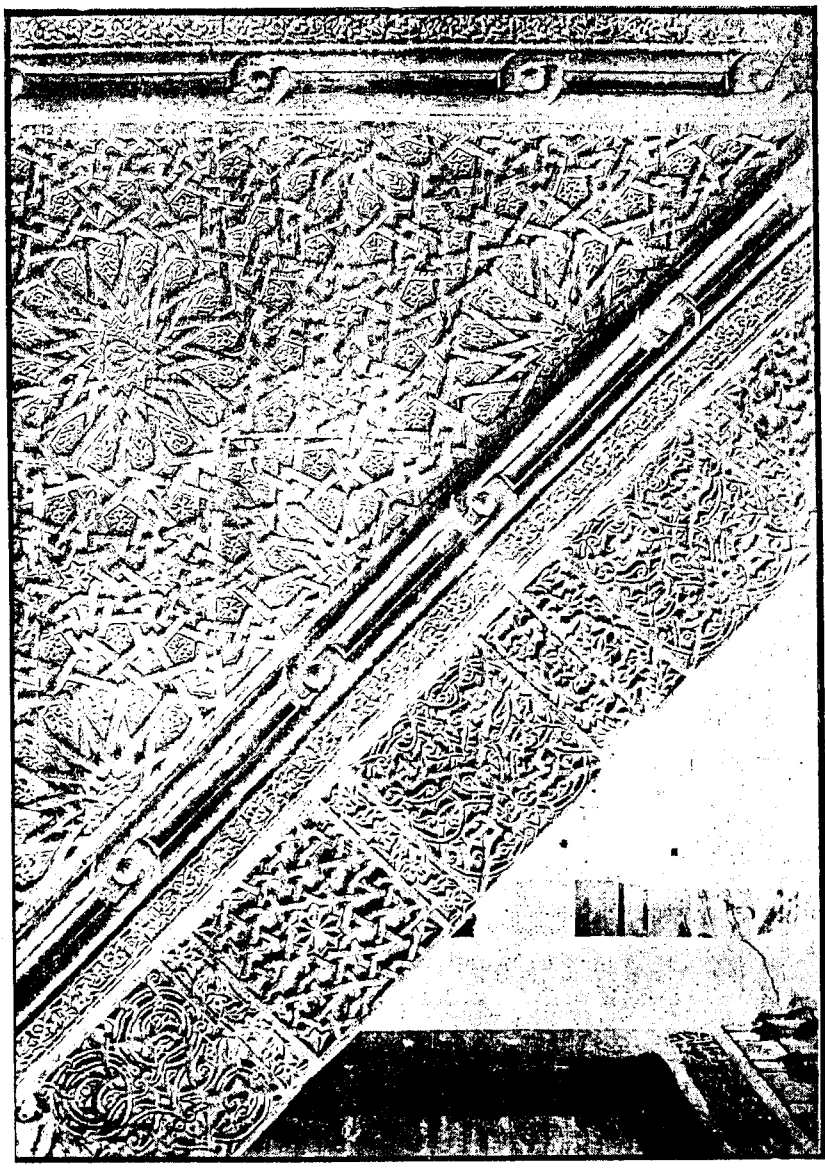

(رسم رقم ٤ : جزء من جانب مسجد برقوق بالصحراء)

مذهبا فى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ولم تكن المنابر قد ذهبت قبل ذلك .

كما أن أول من اتخذ كساء للمنبر بمصر الحاكم بأمر الله . وسبب ذلك أنه أخرج المنبر المذهب السالف الذكر إلى مدينة اسكندرية ، فأقامه بمسجدها واستعاض عنه لمسجد مصر بمنبر كبير فى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ — ١٠١٥م)؛ وفى ذات يوم من هذه السنة وجد هذا المنبر الجديد ملطخاً بالعذرة، فأمر بأن يصنع له كساء من أدم مذهب ، ثم وكل به من يحفظه لئلا يلطخ مرة ثانية . وأول من كسا المنبر على الاطلاق أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فقد كسا منبر الحرم المدنى قبطية، أى بقماش من صنع الأقباط بمصر.

أما ما يتعلق بالمنابر من الخطبة والخطباء، فقد ظل ولاة الأمصار والبلدان هم الذين يتولون الخطابة بالنيابة عن الخليفة إلى سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) فى مصر، حيث كان الوالى عتبة بن اسحاق، وهو آخر من ولى على مصر من العرب . وكان خلفاء العباسيين فى هذا التاريخ قد أسرفوا فى اتخاذ الأتراك بطانة وشيعة لهم وتركوا العرب ، فصاروا يجعلون منهم ولاة فى البلدان والأمصار، وكان أكثر هؤلاء يعجزون عن تأدية اللغة العربية النصحى طبعاً، فصاروا يستأجرون من الفقهاء من ينيبونه عنهم .

ومن الغريب أن هذه البدعة هى التى استحسن العمل بها، حتى أن ابن طولون لما أنشأ القطائع والجامع واستقل بمصر ظل أيضاً يصلى فى جامعه وفى جامع عمرو مؤتما بالامام الذى يستأجره للصلاة والخطبة ، وسرى على هذا المنوال غيره من أمراء دولته حتى بعد حرق القطائع سنة ٢٩٢هـ (٩٠٤م) ، على أن التاريخ يحدثنا أن الفاطميين لما تغلبوا على مصر وأنشأوا القاهرة وبنوا الجامع الأزهر سنة ٣٥٩هـ أعادوا الأمر إلى ما كان عليه أولا، وبخاصة فى شهر رمضان .

فكان الخليفة يؤم الناس فى الصلاة ، ويصلى بهم كل صلاة جمعة من شهر رمضان فى مسجد من هذه المساجد الثلاثة : الأزهر ، والأنور أى الحاكمى، والعتيق: عدا الجمعة الأولى فانه كان يصليها فى مصلى قصره .

وسبب هذا التنقل الرأفة بالناس حتى لا يتجشم سكان الأحياء النائية مشقة الانتقال ؛ فكان الخليفة يومئذ يذهب إلى المسجد — كما قال المقريزى — لابساً البياض توقيراً للصلاة من الذهب ، والمنديل والطيلسان المقور الشعرى ، فيدخل من باب الخطابة والوزير معه بعد أن يتقدمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال (وزير المالية) وبين يديه الفرش المختصة بالخليفة إذا سار اليه فى هذا اليوم ، وهو محمول بأيدى الفراشين المميزين ، فيفرش فى المحراب ثلاث طراحات: إما سامان ، أو ديبق أبيض كل منها منقوش بالحمرة، فتجعل الطراحات متطابقات، ويعلق ستران يمنة ويسرة ، وفى الستر الأيمن كتابة مرقومة بالحرير الأحمر واضحة منقوطة ، أولها البسملة والفاتحة وسورة الجمعة ، وفى الستر الأيسر مثل ذلك وسورة « إذا جاءك المنافقون »، قد علقا على حائط المحراب وأسبلا على جانبيه . ثم يصعد قاضى القضاة المنبر، وفى يده مدخنة لطيفة

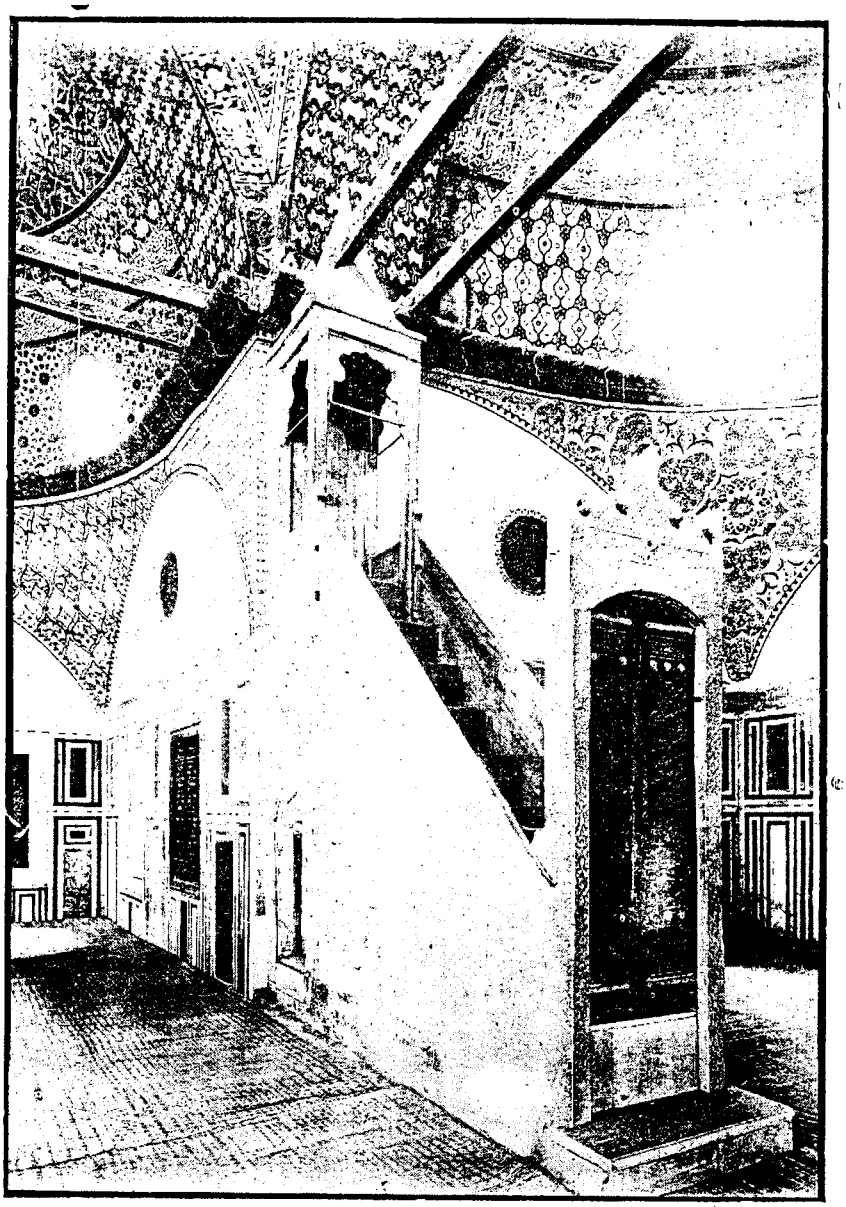

(رسم رقم ٥ : منبر مسجد سليمان باشا «سارية الجبل»)

خزران فيها جمرات، ويجعل فيها ند مثلث لا يشم مثله إلا هناك ، فيبخر الذروة التي عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ،ويكرر ذلك ثلاث دفعات .فيأتي الخليفه في هيئة موقرة من الطبل والبوق ، وحوالي ركابه ـ خارج أصحاب الركاب ـ القراء،وهم قراء الحضرة من الجانبين، يطربون بالقراءة نوبة بعد نوبة،يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسي طول الطريق إلى قاعة الخطابة من الجامع فيجلس فيها والوزير في مكان آخر.

فاذا أذن بالجمعة دخل إليه قاضي القضاة فقال له :« السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته ، الصلاة! يرحمك الله » ؛ فيخرج ماشيا وحواليه الأساتذة المحنكون ، والوزير وراءه ، ومن يليهم من الخواص ،وبأيديهم الأسلحة من صبيان الخاص ـ وهم أمراء أطلق عليهم هذا الاسم ـ فيصعد المنبر إلى أن يصل إلى الذروة تحت تلك القبة المبخرة .

فاذا استوى جالساً والوزير أو قاضي القضاة على باب المنبر ووجهه إليه، فيشير إليه بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه ، فيقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزرر عليه تلك القبة لأنها كالهودج، ثم ينزل مستقبلا فيقف ضابطاً لباب المنبر .

فيخطب الخليفة خطبة قصيرة من مسطور يحضر إليه من ديوان الانشاء يقرأ فيه آية من القرآن الكريم مثل « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي » الآية ، ثم يصلي على أبيه وجده، يعني محمداً صلى الله عليه وسلم، وعلى ابن أبي طالب رضي الله عنه،ويعظ الناس وعظاً بليغاً قليل اللفظ ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه فيقول:« اللهم! وأنا عبدك وابن عبدك، لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً » ويتوسل بدعوات فخمة تليق بمثله ، ويدعو للوزير إن كان،وللجيوش بالنصر والتأليف، وللعساكر بالظفر،وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقهر ؛ثم يختم بقوله:« اذكروا الله يذكركم» فيطلع إليه من زرر عليه، ويفك ذلك التزرير وينزل القهقرى: (وسبب التزرير عليهم قراءتهم من مسطور كما يفعل بعض الخطباء الآن) ؛ فينزل الخليفة ويصير على تلك الطراحات الثلاث في المحراب وحده إماما ، ويقف الوزير وقاضي القضاة صفا ، ومن ورائهما الأساتذة المحنكون ، والامراء المطوقون ، وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والاقلام ، والمؤذنون وقوف وظهورهم إلى المقصورة لحفظه . فاذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضي، فأسمع القاضي المؤذنين ، وأسمع المؤذنون الناس.

هذا والجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه ، فيقرأ ماهو مكتوب في الستر الأيمن في الركعة الأولى ، وفي الركعة الثانية ماهو مكتوب في الأيسر ، وذلك على طريق التذكار خيفة الارتاج.

فاذا فرغ خرج الناس وركبوا أولا فأولا ، وعاد طالبا القصر ، والوزير وراءه ، وضربت الأبواق والطبول في العود . اهـ

قلت : والسبب في قراءتهم هاتين السورتين هو اقتداء بما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم،

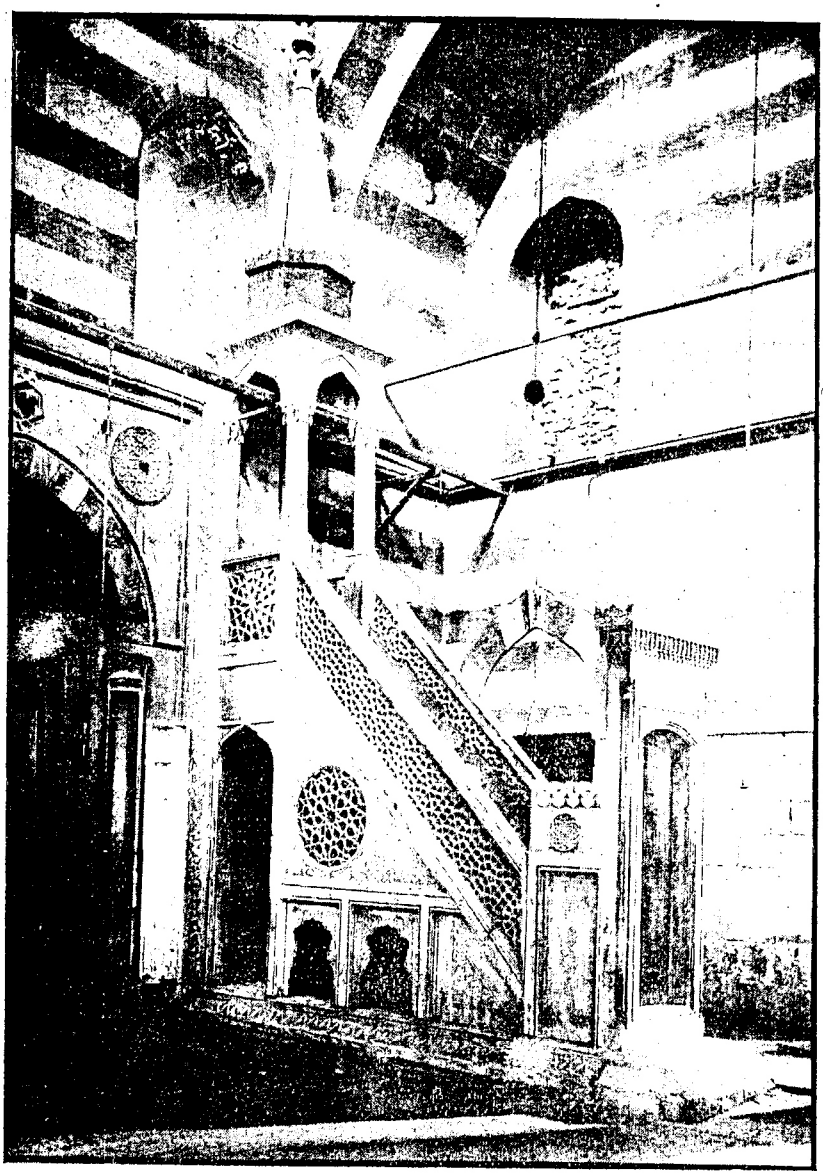

(رسم رقم ٦ : منبر مسجد الملكة صفية)

فقد كان يقرأ مرة « الجمعة » و « المنافقين » ومرة «سبح اسم ربك الأعلى» و «هل أتاك حديث الغاشية » فهما سنتان عنه عليه السلام .

وبعد أن انقضى عهد الفاطميين، وملك الأيوبيون مصر، ألغوا كل ماصنعه الفاطميون حتى أنهم أغلقوا الأزهر مائة عام ، واكتفوا بجامع الحاكم لاتساعه ، لأنهم كانوا شافعي المذهب الذى لايجيز إقامة جمعتين فى بلد واحد إلا للضرورة .

وهاك وصف الخطبة والدعاء ،وشكل المنبر فى عهدهم نقلا عن ابن جبير فى رحلته: «...ويأخذ الخطيب فيها ـ أى فى الخطبة ـ مأخذا سنيا يجمع فيه الدعاء للصحابة والتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين، ولعمى الرسول الكريمين : حمزة والعباس ، ويلطف الوعظ ، ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية وتنفجر العيون الجامدة ؛ ويأتى للخطبة لابسا السواد على رسم العباسيين، وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود ، وهو الذى يسمى بالمغرب « الاحرام » وعمامة سوداء متقلداً سيفا ؛ وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين ، كأنها إيذان بالانصات ، وفى توسطه أخرى ؛ وفى انتهاء صعوده ثالثة، ثم يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا ؛ ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزتا على المنبر ... » اه

واتخذ العباسيون السواد شعارا لهم كما اتخذ الأمويون البياض قبلهم، وقد استعمل الانسان الألوان لترمز لحالة معينة ؛ فرمز مثلا: باللون الأحمر للحرب ، واللون الأخضر للسلم ؛ واللون الأبيض للسرور ؛ واللون الأسود للحرب .

وقد كان أهل الأندلس يستعملون البياض حدادا كما أشار إلى ذلك الشاعر بقوله .

يقولون : البياض لباس حزن بأندلس ، فقلت: من الصواب
ألم ترنى لبست بياض شيبى لأنى قد حزنت على الشباب؟

واختلف فى سبب اختيار العباسيين السواد فقال الماوردى فى كتابه « الحاوى »: إن النبى صلى الله عليه وسلم فى يوم حنين ويوم الفتح عقد لعمه العباس رضى الله عنه راية سوداء .

وذكر أبو هلال العسكرى فى كتابه « الأوائل »: لما أراد مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين قتل ابراهيم بن محمد العباسى أول القائمين بطلب الخلافة من بنى العباس، قال ابرهيم لشيعته : لا يهولنكم قتلى فاذا تمكنتم من أمركم فاستخلفوا عليكم أبا العباس، يعنى السفاح ؛ فلما قتله مروان لبس شيعته عليه السواد ، فلزمهم ذلك وصار شعاراً لهم .اه .

قلت: وأول من خطب بلباس السواد بمصر، الأمير عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية سنة ١٥٢هـ (٧٦٩ م)

يوسف أحمد